الحياة الادبية في الحجاز

نهضة الشعر

للأستاذ أحمد أبو بكر ابراهيم

كان الشعر الحجازى قد أصابه الركود كما أصاب غيره فى الأقطار الأخرى ، وقنع شعراؤه بتقليد ضعاف الشعراء فى عصور الاضمحلال الأدبى ؛ فوقفت المحسنات البديعية فى طريق تجويدهم وإبداعهم ، وأضاعوا وقتهم واستنفدوا مجهودهم فى التشطير والتخميس ، وظل الشعر على هذه الحال حتى هزته ثورة التجديد فتخلص من هذه القيود التى كبلته الزمان الطويل ، وقد وصف الأستاذ أحمد العربى حال الشعر الحجازى قبل نهضته فقال : « لم يكن الأدب الحجازى سوى بضع منظومات وكتابات سقيمة المعنى واهية السبك ملتوية الأسلوب يدور أكثرها فى نطاق ضيق من المديح السخيف والغزل والتشطير والتخميس على نمط ليس له من مبرر سوى ذلك العقم الأدبى الذى منيت به الأفكار فى تلك الحقبة الشئومة ، وإلا فأى إنتاج ينتجه أولئك الذين يتناولون بيتين أو أكثر من الشعر بالتشطير والتخميس ، فيعمدون إلى تعطيط معناها وتفكيك أواصرها وحشوها بما يناسب وما لا يناسب من الألفاظ المترادفة والتراكيب المرصوفة ... الخ »

آخر زيادة على المدة المصرح بها رسميا ؛ ويذكر ما كفرسون أنه كان يعجب أشد العجب ويتساءل عن الداعى لذلك ، وهل هو شدة حب الناس وتعلقهم بأوليائهم ، إلى أن جاءه الجواب أخيراً بعد انتهاء مولد السيدة فاطمة النبوية بنت جعفر الصادق ... يقول ما كفرسون « ولدهشتى البالغة سمعت شيخاً يقف إلى جانب ضريحها (ضريح السيدة فاطمة) وهو يقول : إننا نحتفل بأسبوع الطفل بعد سبعة أيام من مولده ، فلم لا نحتفل بأسبوع هذه السيدة الجليلة أيضاً ؟ فلم أتمالك من أن أغمغم وراءه بصوت خفيض : نعم لم لا يكون ذلك » .

(يتبع)

أحمد أبو زيد

وما كاد الحجازيون يتذوقون المناهج الحديثة فى الشعر حتى حملوا على عشاق القديم حملة عنيفة ليردوهم عن التقليد ويوجهوهم إلى الغاية التى يرجونها للشعر ، وقد جاء فى مقال للأستاذ عواد ينتقد فيه المقلدين : « ... نعم الشعر جميل ، ولكن أين الشعر الذى تنظمونه أو ترونه ؟

أتلمسه فى تخميس :

« تيهُ علينا مذ رُزقت ملاحةً »

أم تشطير : « إذا كان لى أهلان أهلٌ ترحلوا »

أم فى مشجر : « على جيد هذا الظبى فلينظِم الدرُّ »

أم فى تخميس آخر مطلعه :

« أنيرى مكان البدر إن فقد البدر »

أم فى مدحة أنشدت للحسين فى يوم عيد مطلعها :

« سَلْ ما لسلمى بسوق النحس تشريني »

أواه ! كل هذه أيها المتشاعرون صديد فكرى وقيوء (باللغة التى تفهمونها) لو أتفق العمر بأجمعه فى مثلها لما وصل الناظم إلى الشعر . الشعر جميل أما أمثال هذا فلا ... »

وبدهى أن ثورة التجديد فى الشعر الحجازى لا يمكن أن توجه الشعراء جميعاً إلى وجهة واحدة ؛ إذ لا بد له من زمن طويل يشتط فيه المجددون ويسرفون فى التجديد ، ويشعر القدامى بتأخرهم فيقتربون منهم شيئاً فشيئاً ، ويعود المسرفون فيهدئون من ثورتهم ليلتقوا بإخوانهم القدامى الذين تخلفوا عنهم وحينئذ يجتمع فى الشعر محاسن الطريقتين ، ويستقر فى طريق له معروفة مرسومة لا تكون عرضة لنوازع التغيير والتبديل الفجائيين .

حدث هذا الصراع فى الحجاز منذ أن قام الشعراء بنهضتهم الحديثة ؛ فقد حمل المجددون على الجمود والخمول وتناولوا عشاق القديم بالنقد اللاذع فأثر فيهم هذا النقد ، ولم يعد الآن فى الحجاز من يطرب للتشطير والتخميس أو يهتز لألوان البديع ، واتجهوا جميعاً إلى أغراض الحياة يسطونها فى أشعارهم ويجلونها فى بيانهم وإن كانت ظاهرة الاختلاف لا تزال قائمة ؛ فشعراء الحجاز الآن طائفتان : طائفة مجددة ولكنها متئدة متمهلة تعنى بالديباجة القوية وتبقى على كثير من الأغراض القديمة . وطائفة متوثبة مسرفة فى التجديد قد استطاعت أن تقطع صلتها بالقديم إلا فى الألفاظ والتراكيب .

ولعل الحجازيين عند ما انفسح أمامهم طريق الرقي الأدبي وجدوا أنفسهم متأخرين ؛ وجدوا مصر والشام ثم العراق قد قطعت في ميدان التقدم شوطاً بعيد المدى فهالهم الأمر وأرادوا اللحاق بهم ؛ فلم يكن هناك بد من أن يسرعوا الخطا ويتخذوا السير في حركة الوثب المتحفز الذي لا يبقي ولا يذر . فماذا وجدوا أمامهم ؟

رأوا دواوين الشعر القديم قد ملأت الأسواق ورأوا أدباء مصر والشام قد أنتجوا المعجب في الأدب ، ورأوا غير هاتين الناحيتين أدبا آخر هو الأدب العربي في أمريكا ، وهو أحدث هذه الآداب وأقربها إلى الأدب الأجنبي .

وجدوا كل هذا فمال الكثيرون إلى الأداب الحديثة وبخاصة أدب المهجر وتعشقوها وجاهدوا في تقليدها كأنهم رأوا فيها الخلاص من الجمود والتأخر ؛ فاستطاعوا في زمن وجيز أن يباعدوا بين مناهجهم ومناهج من سبقوهم ؛ حتى ليخيل إليك عدم الارتباط والصلة بين الأدبين .

وأما الآخرون — وهم أقلية — فقد آثروا الاعتدال والتمهل والتفتوا إلى الأدب القوي القديم يقرءونه ويحاكونه في بلاغته ورصانته ، ومالوا إلى الأدبين المصري والشامي ينهجون منهجهما ويلائمون بينهما وبين حياتهم ، ولم يتركوا من أدب المهجر ماراقهم من موضوعاته ومعانيه . وإنك لتلمس في الأبيات الآتية وهي « للفزاوي » تأثراً بالأدب العربي القديم في أساليبه ومعانيه وتجديداً في قليل من الأخيلة والمعاني :

حائم الأيك إن أبكاك ذو شجن ... أصفيته الحبَّ إسراراً وإعلانا
وبتَّ فيه على ذكرى وموجدة ... تذرين دمعك أسجاعاً وألحانا
وظل دأبك في الأسحار أغنيةً ... يخالها السمع بالتوقيع عيدانا
فما بنفسي مما تشتكي حُرَقٌ ... ولا تعشقت آراماً وغزلانا
لكن سكبت دمي دمعاً على وطني ... فد كان في المجد والتاريخ ما كانا

على أن تأثر هذه الطائفة بالشعر القديم يبدو في طريقة الشعر نفسه فالفزاوي في قصيدة له عنوانها « منازه الطائف » يعلؤها بذكر الأمكنة على طريقة الأقدمين في ذكر الديار والأطلال فهو يقول فيها:

وتهفو بنا النسمات حين هبوبها
إلى فرص اللذات تحت الكواكب
(بوجٍّ) وفي وادي (العقيق) ودونه
وفي (ليةٍ) أو بين (قرن) النجائب
وفي (الوَعطِ) المخضر أو في (وهيطه) .
وفوق (الشفا) أو في أديم السحائب

ويقول :

ولا أنس (بالثنات) ليلات أنسنا
وبين (الحدى) أو في جوار (الكباكب)

وهكذا يسير الشاعر في قصيدته معددا الأماكن التي ألفها وأقام بها . ولكن هذا التقليد للأقدمين لا يعدو الطريقة ؛ فإن الشاعر متأثر بهذه الأماكن وله فيها ذكريات ، ولا يعاب عليه أن يذكرها في شعره ؛ لأنه ذكر العالم بها المتأثر بما فيها .

أما المدرسة المسرفة في التجديد فقد تعلقت بالثقافة المنقولة عن الغرب ومالت إلى أدب أدباء المهجر من أمثال جبران والريحاني وأبي ماضي وفرحات وغيرهم ؛ وذلك لأن شعراء هذه المدرسة لمسوا في أدب المهجر ثورة على القديم وجرأة في التجديد وصراحة في الحق ، فعكفوا على هذا الأدب لأنهم وجدوا فيه غذاء حركتهم الناشطة ومشعلا يضيء لهم جوانب الحياة التي يرجونها وهي التجديد السريع .

وجد شعراء هذه المدرسة جبران ينعى على التقليد ويحط من شأنه حين يقول : « .. ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانع عن اقتفاء أثر المتقدمين ؛ فخير لكم وللغة العربية أن تبنوا كوخاً حقيراً من ذاتكم الوضيعة من أن تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم المقتبسة . ليكن لكم من عزة نفوسكم زاجر عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة ، فخير لكم وللغة العربية أن تموتوا مهملين محتقرين من أن تحرقوا قلوبكم بخوراً أمام الأصنام والأنصاب . ليكن لكم من حماستكم القومية دافع إلى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الألم وعجائب الفرح ؛ فخير لكم وللغة العربية أن تتناولوا أبسط ما يتمثل لكم من الحوادث في محيطكم وتلبسوها حلة من خيالكم من أن تعربوا أجل وأجل ما كتبه الغربيون » .

(البقية في العدد القادم)

أحمد أبو بكر إبراهيم